



الحياة على نار هادئة

مشاهد من سيرة ذاتية⁽¹⁾

محمد شقير

روائي فلسطيني

1

نحن الآن في شهر تشرين الثاني من عام 2018.

بعد خمسة أشهر، أي في الخامس عشر من آذار 2019، أبلغ الثامنة والسبعين من العمر.

وفي عام 2021 أبلغ الثمانين، وسأتذكر الشاعر زهير ابن أبي سلمى الذي قال:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعشُ
ثمانينَ حَوْلًا لا أبا لكِ يَسأمُ

وسأفكر في أسباب السأم الذي ألمّ بزهير وجعله متدمرًا؛ ذلك لشعوري بأن الثمانين ليست

بالكثرة التي يمكن أن تقود إلى السأم، وأرجو ألا أكون مخطئًا.

أو ربّما كان لاختلاف الأزمنة علاقة بوقوعها وبأثرها المختلف في نفوس البشر.

مع ذلك، يمكنني التأكيد منذ الآن على أنّ رحلتي في الحياة لم تعد قصيرة بعد هذا العمر؛

إلا أنّها لم تكن مدعاة للسأم. كان يمكن أن أموت وأنا طفل في العاشرة، حين صوّب

(1) من سيرة ذاتية ستصدر قريبًا في كتاب متمع لكتابي: تلك الأمكنة.

طفل من أبناء أقاربي مقلاعه من باب الطيش والعبث في اتجاهي وأنا على مسافة خمسين مترًا منه. انطلق الحجر من المقلاع نحوي ولم يصبني، لكنني سمعت أزيزه وهو يمرّ على مقربة من رأسي. يومها، لو أصابني الحجر في رأسي لقضى عليّ، إلا أن الصدف جعلتني في منجاة منه ولم أمت.

وكنت أتوقع أن أموت وأنا في الثامنة عشرة من العمر، حين عانيت آنذاك من التهاب في الأمعاء، وكنت ضعيف البنية نحيفًا. ربّما كان إحساسي آنذاك تجاه الحياة والموت مشوبًا برومانسيّة زائدة، وبطفح غير منطقي في المشاعر.

وكنت سأموت غرقًا وأنا في العشرين حين هممت بقطع سيلٍ مياؤه هادرة مندفعة بضراوة. يقع السيل ما بين قريتين من قرى مدينة رام الله هما: كفر نعمة وخرثا بني حارث، وتتجمع مياهه من الأمطار النازلة على رؤوس الجبال القريبة والبعيدة.

كنت في تلك السنة من عام 1961 أعمل مدرّسًا في قرية خرثا بني حارث، الواقعة على مسافة خمسة وعشرين كيلومترًا شمالي رام الله؛ وكنا في فصل الربيع ذهبنا أنا ومدير المدرسة والتلاميذ في رحلة مدرسيّة مشتركة مع مدرسة كفر نعمة إلى طولكرم وقلقيلية وجنين، ثمّ عدنا في المساء إلى قرية كفر نعمة؛ حيث قضينا الليلة هناك، وفي الصباح اتجهنا عائدين إلى خرثا مشيًا على الأقدام؛ وكان علينا أن نقطع الوادي الذي يفصل ما بين القريتين ومعنا التلاميذ.

كانت السماء ملبّدة بالغيوم، ولم يلبث المطر أن انهمر غزيرًا. كنا في شهر آذار، ويبدو أن المطر هطل قبل وقت على الجبال البعيدة؛ وما أن اقتربنا من الوادي حتى كان السيل يهدر بمياه عاتية. تقدّمت مسافة مترٍ واحد داخل السيل الذي يزيد عرضه عن خمسة أمتار، ثم شعرت بدوار جرّاء سرعة جريان المياه واندفاعها، وتراجعت؛ حسنًا أنني تراجعت وإلاّ لكانت مياه السيل أخذتني معها إلى غير رجعة نحو البعيد.

منعنا التلاميذ من اجتياز السيل، وبقينا هناك بضع ساعات إلى أن خفّ جريان المياه.

يومها خفت أن أموت؛ وكان خوفي مبرّرًا ولا مبالغة فيه، غير أنني عشت، وتعرّضت لمآزق أخرى كادت تضع حدًا لحياتي، لكنني نجوت؛ وأدعي أنني كابدت كثيرًا. دخلت السجون وجربّت المنافي وبقيت على قيد الحياة. إلا أنني الآن لا أفكر في الموت.



أفكّر في احتمالات المرض الذي قد يُقعدني عن الحركة؛ أفكّر في مرض السرطان الذي قد يظهر من دون مقدمات؛ ربّما لأنّ بعض الخلايا في جسمي لا يعجبها أن تواصل حياتها المنتظمة مع بقية خلاياه، فتقوم بطفرة غير محسوبة وينمو غير مقبول من بقية أعضاء الجسم. أفكّر أحياناً في الألم الناتج عن مرض السرطان أو غيره من الأمراض التي لا ترحم، ولا يعيقني هذا التفكير عن مواصلة الحياة.

كتبت:

«بعد سبع وخمسين سنة من الكتابة؛ إليكم كشف الحساب: «تشنج في أصابع اليدين، تعبٌ ودموع في العينين، إنزلاقان غضروفيان في العمود الفقري، حرصٌ على شرف الكلمة ووفاء، حياة بسيطة متقشّفة بلا ادعاء».

2

لست أخشى الموت حين يتعلّق الأمر بي؛ غير أنّني أخشى على حفيدي الأصغر مهدي من موت مفاجئ، كأن تصدمه سيّارة وهو خارج باندفاع من بوابة البيت التي لا يفصلها عن الشارع أيّ فاصل، فهي تفتح على شارع فرعي لا تجتازه السيّارات إلّا على نحو محدود. أحياناً تأتي سيّارات تائهة، تدخل الشارع ثم تعود أدراجها حين تكتشف أنّه شارع مغلق ينتهي بعد عشرين متراً من بيتنا.

من هنا تأتي خشيتي على حفيدي، من سيّارة تائهة تدخل شارعنا بسرعة فلا يتنبه إليها الحفيد وهو خارجٌ من بوابة البيت.

أخشى عليه حدّ الوسواس، كأن يُخطفه غرباء وهو يتجوّل وحده في الشارع بعد الغروب. وأتذكّر وسواس خليل السكاكيني الذي ظنّ أنّ زوجته سلطانة المريضة حدّ الغيبوبة لم تمت، وأنها دفنت وهي على قيد الحياة.

ذات مرة، حاولت أمّه ثنيه عن الذهاب المتكرّر إلى الحانوت الصغير المجاور لبيتنا. قالت له: إنّ عصابة لُخطف الأطفال تكمن هناك بالقرب من الحانوت. صدّق كلامها ثم جاءني وأنا لا أعرف مدى الجدّيّة في كلامه، لأنّه بارع في التمثيل وفي اصطناع المواقف، طلب منّي أن أكتب على الفيسبوك تحذيراً من عصابة الأطفال، وقال إنّ سيّها تف رجال الشرطة

ويطلب منهم تعقّب هذه العصابة، وسيقوم بدوره بالتصدّي لهم وضرّ بهم، وظلّ طوال ساعة أو أكثر يتحدث عن العصابة الشرّيرة، ثم مضى إلى فراشه لكي ينام. حفيدي عمره الآن خمس سنوات.

وقبل أن أغادر سيرة الموت، تخطر في البال رواية خوزيه ساراماغو عن الموت الذي قرّر الاستقالة من عمله، فتكدّس الناس فوق بعضهم بعضاً وصاروا يتمنون أن يستأنف الموت عمله لكي تصبح حياة الأحياء أقلّ إرباكاً. مع ذلك يؤلنا الموت حين يأخذ من بيننا أحبةً وأصدقاء.

3

وأنا على أبواب الثمانين؛ لم أعد أغادر البيت إلّا للضرورات؛ كأن أذهب إلى المسرح الوطني أو إلى مقهى الكتاب الثقافي في القدس لحضور ندوة، أو للقاء أصدقاء. وكأنّ أذهب إلى رام الله لقضاء بعض المهمّات الحياتيّة اليومية: أسحب نقوداً من البنك، أشترى كتباً من المكتبات، أتناول طعام الغداء مع أصدقاء، أحضر ندوة ثقافيّة أو سياسيّة.

ومن حسن حظي أنّي ما زلت قادراً على قيادة السيّارة؛ رغم أنّها صارت ترهقني وتتطلّب مني مجهوداً زائداً، ولست أدري إلى متى سوف أستمّر قادراً عليها فيما يقفّات الزمن على عمري ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

في بعض الحالات، لدى الذهاب إلى قاعة أعراس أو إلى بيت عزاء، أذهب مع أحد الأبناء في سيارته، أو أعتمد على أحد شباب العائلة لقيادة سيارتي؛ ذلك أنّ المناسبات الاجتماعيّة تتكاثر في بلادنا كما لو أنّهم ردّ على حالة القمع والحصار التي يفرضها علينا المحتلون الإسرائيليون، ويجيا تحت وطأتها الناس.

ومع الأسف؛ أصبحت كثير النسيان، ولم تعد ذاكرتي حيّة متوقّدة كما عهدتها في أيام الشباب والكهولة. أنسى ما قرأت من كتب وما شاهدت من أفلام بعد أيام قليلة من القراءة أو المشاهدة. مثلاً: أحاول تذكر مشهد من فيلم شاهدته قبل أيام، أو تذكر الفكرة التي يدور حولها الفيلم من دون جدوى.

في بعض الأحيان؛ أنسى أسماء أشخاص أعرفهم حقّ المعرفة، وأمضي أياماً وأنا أستحثّ



ذاكرتي على التذكّر. كنت قد تعلّمت حقيقة مفادها أن أحاول ما استطعت تدريب ذاكرتي على القيام بعملها بدون مساعدة من أحد، أظّل أحاول التذكر حتى أنجح في مسعاي. الآن، ومنذ أيام، أحاول تذكّر اسم ناشطة ثقافية في فلسطين أعرفها تمامًا، وأحاول تذكّر اسم صحافي لامع كُنّا؛ أنا وأحد الأصدقاء تحدثنا عنه وأشدنا به، فلا تسعفني ذاكرتي بتذكّر اسمه.

أخشى أن أصاب بمرض الزهايمر، أفضل الموت على فقدان العقل والذاكرة. أعرف حالات مرضية من هذا النوع لأصدقاء كتّاب وسياسيين. أعرف أن ذويم لا يسمحون لهم بالخروج من البيت كي لا يضيعوا في الطرقات. أعرف أن الذاكرة تمنحني تمامًا فلا يعود الواحد منهم يعرف أحدًا من الناس، حتى المقربين منه لا يعود يعرفهم. أعرف ممّا قرأته عن الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان أنه نسي كل شيء بعد إصابته بالزهايمر ما عدا زوجته نانسي؛ ظلّ يعرفها ويناديها باسمها.

من حسن حظي أنني أبقيت على صور أصدقائي الذين ابتلوا بالزهايمر، أبقيت على صورهم كما عرفتهم في أيام صحوهم وعافيتهم، ولم أرهم بعد الوقوع في براثن المرض. قيل لي عن أحد الأصدقاء إنه يبدو مثل طفل، يتسم ابتسامته لا تدلّ على مغزى، وينظر بعينين زائغتين ويرى من حوله ولا يبدو على وجهه أي انطباع محدد.

صديق واحد مصاب بالزهايمر زرتته وتمنيت لو أنني لم أفعل. كان في وادٍ ونحن الذين من حوله في وادٍ آخر. كان يحدّق في شاشة التلفاز من دون أي انفعال. بقيت عنده بضع دقائق ثم خرجت.

أعرف أن تنشيط الدماغ باستمرار من خلال القراءة والكتابة وإمعان النظر في شؤون الحياة والمجتمع، يحمي من تدهور خلايا الدماغ والوصول إلى تخوم المرض. وأعرف أن إدراكي لحالات النسيان والشكوى منها دليل على أنني لا أعاني من أعراض الزهايمر، فمن يعاني من هذه الأعراض؛ في ما أعلم، لا ينتبه إلى أنه ينسى.

الزهايمر يعرّض شيخوخة الكائن البشري للمهانة، وهذا أمرٌ باهظ بطبيعة الحال.

4

بعد سنتين وخمسة أشهر أبلغ الثمانين. سأكون طوال تلك الأشهر والأسابيع والأيام القادمة في انتظار مرحلة عمرية لم أكن أتوقّع أنني سوف أصلها؛ ويبدو لي أنني سأصلها

من دون إشكالات، فالمسافة بيني وبينها باتت قريبة.

لن أقر بأنني عجوز طاعن في السن. وكم أشعر باستياء حين أسمع مديعاً يردّد في المذياع أو على شاشة التلفاز بأنّ عجوزاً في الستين أو في السبعين تعرّض لحادث دهس من سيارة مسرعة، أو لإطلاق نار من جنود الاحتلال! فإذا كان ابن الستين أو ابن السبعين عجوزاً، فماذا يمكن أن يقال عن رجل سيبلغ الثمانين بعد سنتين وخمسة أشهر؟!

يقال: إنّ الجسد يهرم والنفس لا تهرم، ويبدو أنّ ذلك صحيح. يبدو كذلك أنّ لدى المسنّين نوعاً من المكابرة، تنطبق على الغالبية العظمى منهم. ولطالما تداولتُ مع بعض أبناء جيلي أو من هم أكبر مني قليلاً في هذه المسألة؛ ولطالما تذكّرنا أنّنا كنّا ننظر إلى آبائنا وهم في الستين على أنّهم عجائز طاعنون في السن؛ ولم نستبعد أنّ شباب اليوم ينظرون إلينا على أنّنا عجائز طاعنون في السن؛ وهم مخطئون بطبيعة الحال.

5

حين بلغت السابعة والستين من العمر اعتقدت أنّ خمس سنوات أخرى تكفيني. لو متّ عند بلوغي الثانية والسبعين فلا بأس بذلك. أجرب كيف تكون الحياة في سن السبعين وما بعدها بستتين؛ ثم أعادر هذه الدنيا وأنا في عزّ قوتي ونشاطي.

لمّا وصلت الثانية والسبعين شعرت بأنّني لم أشبع بعدُ من الحياة، كنت في أوج عطائي الإبداعي. آنذاك صدرت روايتي؛ «فرس العائلة»، التي قوبلت باهتمام من النقاد ومن القراء. قلت يومها: «لا بأس إنّ عشت بضع سنوات أخرى؛ ربّما كان في الوصول إلى سن الخامسة والسبعين مزايا مؤكدة».

وصلت الخامسة والسبعين، وآنذاك صدرت روايتي «مديح لنساء العائلة»، وأدرجت على القائمة الطويلة ثم القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) عام 2016. وشعرت بأنّني لم أشبع بعد من الحياة.

الآن وأنا أقترّب من الثامنة والسبعين تصدر روايتي «ظلال العائلة» المتّمة للروايتين السابقتين، ويصدر كتابي «أنا والكتابة.. من ألف باء اللّغة إلى بحر الكلمات»، وتصدر لي «سداسية أقمّار القدس»، وهي ستة كتب للأطفال متصل بعضها ببعض، وبذلك يصبح مجموع إصداراتي أكثر من ستين كتاباً؛ وما زلت راغباً في تأليف مزيدٍ من الكتب.



قلت لنفسِي: «إنَّ التَّخَفُّفَ من أعباء الكتابة ومن متابعة الأنشطة الثقافية في القدس وبيت لحم ورام الله و نابلس والخليل وأريحا وحيفا والناصرة وغيرها من مدن فلسطين، والتخفُّف كذلك من السفر إلى الخارج؛ ومن بعض المناسبات الاجتماعية، ربَّما سيجعلني أكثر استمتاعًا بالحياة وأنا ذاهب نحو الثمانين».

ربَّما كان الوصول إلى الثمانين ينطوي على مسرَّات رغم أمراض الشيخوخة والاستحقاقات التي يفرضها الزمن. ربَّما! ولذلك قلت: «ليكن شعاري في الستين والخمسة الأشهر القادمة: «قراءة أقل، كتابة أقل، رياضة أكثر، واعتدال في طعامي وشرابي، فلا تصيبني نخمة ولا يعتريني هزال».

6

ما يلفت انتباهي أنني مجدِّد في الكتابة؛ أو هذا ما أدعيه، لا أستقرُّ على شكل أدبيٍّ واحد. من يقرأ مجموعتي القصصية الأولى «خبز الآخرين» ومجموعة القصص القصيرة جدًّا «طقوس للمرأة الشقية» والمجموعة القصصية «صورة شاكير» سيجد فروقات واضحة في الأساليب، وانتقالًا من حالة إبداعية إلى حالة إبداعية أخرى.

إلا أنني لست مجدِّدًا في بعض شؤون حياتي أو في عاداتي اليومية. مثلاً: منذ أن تعلَّمت الكتابة على الحاسوب وأنا أستخدم نوعًا واحدًا من الخطوط هو تراديشنال أرابيك ولا أتعداه إلى سواه.

وعلى سبيل المثال أيضًا؛ إنَّ لي مكانًا ثابتًا في الغرفة التي أستقبل فيها الضيوف، الكنبه القريبة من موقع الهاتف الأرضي، لا أغيِّرها في الليل أو في النهار. وحين أجد أحد الأحفاد جالسًا في مكاني فإنَّ الجلوس لا يطيب لي إلا في المكان الخاص بي، وإن لم يبادر الحفيد المعني إلى النهوض من المكان، فإنَّ العارفين بطباعي من أفراد العائلة سيبادرون فور دخولي الغرفة إلى حثَّ الحفيد على البحث له عن مكان آخر للجلوس فيه.

ولا يعني هذا أنني أقسو على أحفادي أو أضيِّق ذرعًا بهم. على العكس من ذلك، فأنا ودود معهم، أتفهِّم مشكلاتهم وأمازحهم، لكنني والحق يقال لست مفرطًا في التعاطي معهم. أكتفي بمجاملات سريعة وبكلام مختصر معهم حين أراهم. يُستثنى من ذلك حفيدي مهدي وهو أصغرهم، فأنا أخصّه بوقت كافٍ، وبحوارات طويلة ممتدة في بعض الأحيان.

مهدي هو حفيدي الرابع عشر. جاء إلى الدنيا في الثالث من تشرين الثاني 2013. منذ مولده حتى الآن، وربّما إلى أن أغادر الدنيا، قلت وما زلت أقول: «قد لا أتذكر تواريخ ميلاد أحفادي ما عدا أربعة منهم: ميس التي وُلدت يوم توقيع اتفاق أوسلو في حديقة البيت الأبيض الأميركي؛ أسامة الذي وُلد في اليوم والشهر اللذين ولدتُ فيهما، وبشّار الذي وُلد في ذكرى مذبحه صبرا وشاتيلا، ومهدي الذي وُلد بعد يوم واحد من ذكرى وعد بلفور الذي أقرّ قيام وطن قومي لليهود على أرض وطننا: فلسطين، وكان من نتائج هذا الوعد تشريد مئات الآلاف من أبناء شعبنا خارج مدنهم وقراهم، وتحوّلهم إلى لاجئين».

مهدي هو حفيدي الأخير حتى الآن، المشاغب الذي لا يترك كتابًا أو قلمًا إلا التقطه، ولا يترك كأسًا أو نظارة إلا أغار عليها وعبث بها. نسارع إلى انتزاع أشياءنا من بين يديه، ولا نغضبه، نقول إن هذا الشعب دليل ذكاء، فنفرح له، وهو يجعل أيامنا مملوءة بالمسرات.

لكننا نغضب منه حين ينتزع مفتاح البيت من الباب ويخفيه في مكان ما، وحين يحلّ الليل ويحين موعد نومنا نفتقد المفتاح ولا نجده، نستعين بالمفتاح الاحتياطي لإغلاق الباب، وبعد أيام نعثر على المفتاح مخبأً تحت المجلى أو تحت السرير.

مهدي هو حفيدي الذي أهديته روايتي: «مديح لنساء العائلة»، التي قد يقوم بقراءتها بعد سنوات، حين يصبح في التاسعة عشرة أو العشرين، وقد لا أكون آنذاك موجودًا على قيد الحياة، غير أنني أشعر منذ الآن بالعزاء حين يكون لي أحفاد يقرأون ما كتبت، ويواصلون من بعدي حبهم للقدس ولفلسطين، ولشعبهم وللبشر أينما كانوا وللإنسانية جمعاء.

كتبت:

حفيدي مهدي يتعلم اللّغة بالسليقة:

أقول له: جاء الدبّ يدبب.

يقول لي: جاءت البطة تببط.

أقول: جاء القط يقطقط.

يقول: جاء الكلب يكلب.



وهكذا نمضي وقتاً ونحن نشقق أفعالاً مضارعة من أسماء الحيوانات.
وكتبت:

حفيدي مهدي يفتح البوابة ويخرج راكضاً في الشارع من دون انتباه.

آه، كم أخشى عليه من جنون السيارات!

فهو لا يدرك حتى الآن ما معنى الموت.

أقول له كلما قطع الشارع: تدوسك سيارة مسرعة وتموت.

يقول لي وهو متأثر بمشاهداته على شاشة التلفاز: أموت ثم أنهض وأعود إلى البيت.

وأظّل خائفاً عليه.

7

وأنا على أبواب الثمانين، كان يمكن أن أدخل السجن بتهمة جنائية لا أعلم عنها شيئاً، بسبب ساعة مياه تركتها خلفي في عمّان، ثم نسيتها جرّاء الفرحة بالعودة إلى الوطن عام 1993.

ولولا الفيسبوك لكانت محكمة شمال عمّان حكمت عليّ بالسجن سنة أو سنتين، وقرّرت استيفاء مبلغ خمسة آلاف وأربعمائة دينار أردني مني جرّاء قيام مجهولين بكسر الختم المثبت على الساعة التي تعاقدتُ عليها مع سلطة المياه عام 1990 عندما قمت باستئجار مكتب في المدينة الرياضية، بتكليف من حزب الشعب سميناه: «مكتب الغد للدراسات والنشر». ولما عدتُ إلى الوطن بقي الرفيق محمد أبو شمعة في المكتب حتى عام 1996 ثم عاد إلى الوطن، بعد أن سدّد إيجار المكتب وأنهى علاقتنا به، وبقيت ساعة المياه مسجّلة باسمي، ولم تجد سلطة المياه أحداً لتحميله مسؤوليّة ما وقع للساعة إلا مالکها الذي لم يعد مقيماً في عمّان.

ذات مساء؛ وجدت رسالة على المسنجر من محامية تخبرني بأنّ عليّ تسديد المبلغ المرقوم أعلاه وإلا فسوف ترفع سلطة المياه قضية ضديّ في المحكمة. تركت لي رقم هاتفها، هاتفتها واستفسرتُ منها عن ذلك المبلغ، كيف جاء؟! ومن أين تراكم عليّ؟! شرحت لي حقيقة الأمر؛ وكنت نسيت الساعة المسجّلة باسمي، ولم تخبرني المحامية بأنّ القضية باتت في المحكمة.

بالصدفة، اكتشف صديقي المهندس عبد الفتاح صبيح المقيم في عمّان أنّ مكتب الحمامة

المكلف بمتابعة القضية من سلطة المياه، تقدّم بشكوى جنائية ضديّ، وتمّ النظر فيها ضمن جلستين، وفي الجلسة الثالثة سيحكم القاضي عليّ إن لم أبادر إلى حضور الجلسة لدفع التهمة عني.

سافرتُ من القدس إلى عمّان، ولم أحمل معي سوى حقيبة صغيرة فيها بيجاما وبعض لوازم أخرى، وكان الوقت شهر رمضان. كنت مستاءً بسبب هذه التهمة التي تلبّستني من دون أن يكون لي يدٌ فيها، وكانت رحلتي إلى عمّان أسوأ رحلة أقوم بها جرّاء هذه المشكلة. ذهبت أنا ووليد الحلو، شقيق زوجتي المقيم في مدينة صويلح، إلى مكتب محامٍ، وقّعت له توكيلاً للدفاع عني في القضية.

أقمت داخل فندق في صويلح كائن، حيث الحيّ القريب من بيت وليد، ولم أشأ أن أخبر أحدًا من الأقارب والأصدقاء بقدمي إلى عمّان سوى وليد. أمضيتُ ليلة في الفندق، وفي الصباح تجهنا أنا ووليد إلى محكمة شمال عمّان الواقعة على مقربة من الجامعة الأردنية. وقفت أمام القاضي الذي سألني: هل أنت مذنب؟ قلت: غير مذنب.

تأجلت القضية إلى وقت آخر، وعدت فوراً إلى الجسر، ومن هناك إلى القدس وإلى بيتي في جبل المكبر.

لوم أذهب إلى المحكمة، ولم يخبرني أحدٌ بقرار القاضي، لصار ممكناً القبض عليّ لدى سفري إلى الأردن أو عبر الأردن إلى إحدى البلدان العربيّة، وإيداعي السجن لقضاء سنة أو سنتين فيه بحسب مطالبة مكتب المحاماة المذكور، ولدفع المبلغ المترتب عليّ جرّاء المحاكمة الغيابيّة.

تلك كانت ستكون مصيبة نكراء.

8

ولم تكن رحلتي مع الفيسبوك سهلة ميسرة على الدوام.

ذات يوم؛ علّقت بالإيجاب على نصّ كتبه الفنانة ريم تلحمي تأييداً لزوجها الفنان كامل الباشا؛ جرّاء مشاركته بدور رئيس في فيلم «القضية 23» الذي أخرجه اللبناني زياد دويري. وكان زياد قد اتهمّ بالتطبيع مع المحتلّين الإسرائيليّين حين جاء إلى دولة الاحتلال وأقام



فيها بعض الوقت لتصوير مشاهد لأحد أفلامه؛ وكان من واجبه ألا يأتي بطبيعة الحال. آنذاك؛ وبسبب تأكيدي على وطنية كامل الباشا، واستبعاد تهمة التطبيع عنه جرّاء مشاركته في فيلم لمخرج مطّبع، تصدّى لي شخص باسم مستعار وقال إنّ أمله بي قد خاب. ولم أردّ عليه لأنني ما زلت مقتنعًا بموقفي الذي أبديته تجاه ذلك الفنان.

كنت قد قرّرت منذ بداية مشاركتي في الفيسبوك عام 2010 أن أبتعد ما أمكنني ذلك عن الدخول في حوارات سياسية حول قضايا إشكالية، وخصوصًا حول ثورات الربيع العربي التي اندلعت عام 2011 ثم تمّ اختطافها وحرفها عن نزعتها السلمية وعن الغايات المأمولة منها، وتدخّلت أجهزة مخابرات إقليمية ودولية في مساراتها، فلم أكن راغبًا في إثارة أي حوار حول ذلك على الفيسبوك، بسبب تدخّلات فظة في أحيان كثيرة من أشخاص لا يحترمون أصول الحوار، ولا يتعفّفون عن الوصول في تعليقاتهم إلى درجة قصوى من الإسفاف الذي لا يوصل إلى نتيجة مقنعة أو إلى معرفة متوخّاة.

ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ فقد خسرت بعض الصداقات أو الفتور في علاقات الزمالة جرّاء التباسات تقع عن غير قصد أثناء التعاطي مع الفيسبوك؛ إذ قد يخاصمك صديق لأنك مرتبط بصداقة مع شخص يعاديه هذا الصديق، ويخاصمك صديق آخر أو رفيق بسبب اختلافك معه في الرأي حول قضية ما.

ثمّ عجبت كيف أصبح بعض المثقفين زائدي الحساسية تجاه ما يعتقدون أنّه مساس بأشخاصهم، مع العلم بأنني لا أفكر بالمساس بأيّ شخص سواء أكان صديقًا لي أم غير صديق.

وخوفًا من أيّ التباس أو سوء فهم فإنني أحرص على ألا أعتاب أحدًا من الناس.

أشعر بأنّ استغابة الآخرين فيها نوع من التطاول عليهم في غيابهم. ربما أتحدّث عن خلاف مع شخص آخر حول قضية عامّة، لكنني لا أفكر بالتعرّض للشخص نفسه، بالتجريح أو الإساءة. أترفع عن ذلك.

وما زلت نادمًا على استغابة لا أدري كيف تورّطت فيها من دون سبب. كئنا أنا وزميل آخر نجلس داخل قاعة صغيرة في فندق البوريفاج وسط بيروت أثناء انعقاد المؤتمر الثالث

لاتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين عام 1980، وكان أحد الزملاء يلقي مداخلة خلال إحدى الندوات التي انعقدت على هامش المؤتمر. سألني الزميل: «ما رأيك في هذا الذي يلقي مداخلة الآن؟».

قلت له بما يشبه الهمس: «إنه متقلب؛ لا يثبت على رأي».

وعلى الفور؛ نظر الشخص المقصود بالاستغابة إليّ باستياء، لأن ما قلته وصل إلى سمعه، وجعل وجهه يتغصن ويكفهر. بعد ذلك خاصمني ولم يعد يكلمني، ولم أعرف كيف اعتذر له أو كيف أكفر عن غلطتي، خصوصاً بعد أن فرقت بيننا ظروف الحياة وأماكن الإقامة، ولم نعد نلتقي وظلت العلاقة مقطوعة بيني وبينه إلى أن غادر هذه الدنيا بعد سنوات.

لذلك؛ أخذت عبرة مما جرّه لساني عليّ؛ وصرت حريصاً على عدم استغابة أحد. وأيقنت بصدقية القول المأثور: كلمة السوء مسموعة.

وصرت أتعامل مع الجوانب الإيجابية لأيّ إنسان وأعفّ عن ذكر المساويء.

وقد صار هذا المبدأ الذي اتخذته لي أسلوب حياة يُجنّبني كثيراً من المآزق والإحراجات التي يمكن أن يتسبب فيها الشخص لنفسه، وكثيراً ما تعرّض زملاء لي؛ بينهم مثقفون مرموقون، إلى إحراجات جراء استغابة الآخرين؛ ولديّ أمثلة كثيرة على ذلك. وقد صدق القول المأثور: «لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن هنته هانك».

مع ذلك، لم أسلم طوال رحلتي في الحياة من أناس لم يتورّعوا عن الإساءة لي بحقّ وبغير حقّ، بناءً على إشاعات كاذبة أو تحرّصات لئيمة تنطوي على مبالغات. ولم أكن أكثرث لهؤلاء رغم إحساسي بالانجراح كلما تعرّضت لإساءة، لكنني احتملت الأذى وعشت، ولم أتوقف كثيراً عند حقد الحاقدين.

وقد لفتت انتباهي ذات مرة حكمة كتبها الناقد د. غسان عبد الخالق على حسابه في الفيسبوك بتاريخ 2018/11/23 قال فيها: «لا تسمح لمن يكرهك بأن يسلبك أغلى ما تملك؛ حبك للناس وحبّ الناس لك.»



أبنائي تأثروا بأفكاري إلى حدٍّ غير قليل.

حين كان إبني الأصغر عصام في سنِّ المراهقة تأثر بأفكار الإخوان المسلمين؛ واتخذ من شقيقته باسمه التي تصغره بثلاث سنوات هدفاً لتطبيق أفكاره عليها؛ إذ حين وصلت سنِّ الثالثة عشرة راح يضغط عليها لارتداء الحجاب وهي رافضة لذلك؛ ولم تطل فترة تأثره بفكر الإخوان. كنت معنياً بمحاورته ما بين الحين والآخر، وبمحاولة إقناعه هو وشقيقه خالد وأمين بأفكاري؛ وقد ساعدت دراستهم في الاتحاد السوفياتي على ذلك.

وكنت متحمساً للحوار مع أيِّ كان لنشر الأفكار التي آمنت بها. الآن لم أعد متحمساً للحوار مع أحد؛ ربّما بسبب التقدّم في العمر، وربّما بسبب العزلة التي فرضتها عليّ اشتراطات الكتابة، وربّما اكتفاءً مني بما أطرحه من آراء في كتاباتي المتعدّدة على الفيسبوك وفي الكتب.

أحفادي لم يتأثروا بأفكاري أو هذا ما أتوقّعه، لم يعد لديّ صبرٌ على الشرح؛ ولا أشعر بأنّ لديهم رغبة في الحوار؛ وقليلًا ما يدور حديث بيني وبين الحفيدات والأحفاد؛ يُستثنى من ذلك الطفل مهدي الذي لا يمرُّ يوم من دون أن أتحوّر معه وأصغي إليه وهو يقلّد رجال الشرطة حينًا ولصوص المنازل أو البائعين الجوّالين حينًا آخر، ثم ونحن نرتجل قصصًا خياليّة عن الحيوانات.

ومن متابعتي لعلاقة حفيداتي وأحفادي بأبائهم، فإنّهم لم يتأثروا بأفكار الآباء؛ ربّما لأنّ الآباء لم يعودوا معنيين بالتأثير سياسيًا وفكريًا على بناتهم وأبنائهم، وربّما لأنّهم لم يعودوا منتمين بشكل فعليّ لحزب الشعب، شأنهم في ذلك شأن كثيرين ممّن انتسبوا للحزب في فترات سابقة.

تلك حالة مؤسفة.